أولا: الإنسان فى الإسلام

إنه لمقام عظيم ذلك الذى شرف الإسلام بـه الإنسان حيث أفاضت آيات الله البينات فى تقدير الإنسان، فأكدت قيمـته وارتفعت بمكانته ففضله الله على جميع مخلوقـاته واصطفاه من كافـة كائناته، وكرمـه وعلمه، وأعزه وقـدره فإذا هو فى مكانة تفضل الملائكة وعلم ومسئولية تفوق الجبال والسموات والأرض.

قال الله تعالى فى كـتابه العزيز ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٣٤) ﴾ [البقرة].

هذا هو البيان الذى ليس بعده بيان عن مكانة الإنسان فى الإسلام، اصطفاء واختيار، وخلافة وإعزاز وإكرام ورسالة ومهمة للإنسان من أجلها رشح لخلافة الله فى الأرض يزرعها بالخير ويعمرها بالعدل والمحبة والسلام لمصلحته ولصلاح العالم من حوله.

كذلـك علمنا من هذه الآيات البينات كـيف كـانت الملائكة تتطلع إلى هذه المكانة وتتـوق إلى تلك الخلافة حين أخـبرها الله سبحانه وتعـالى بأنه يرغب فى اختيار خليـفة له فى الأرض، وأن اختياره وقع على آدم، عليه السلام، ليـستخلفه

لما خصه من علم لم تعلمه الملائكة ومسئولية وتكليف حمل الأمانة التى أبت السموات الرحبة والجبال الضخمة والأرض الواسعة أن تحملها وأشفقت منها وحملها الإنسان.

وقد قال تعالى فى هذا المعنى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ ... ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب].

وإزاء حمل هذه الأمانة على مشقتها وعظمتها وضخامتها كرم الله بنى الإنسان وفضلهم على كثير من خلقه إذ قال تعالى فى هذا ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء].

من هذا كله يظهر بوضوح أن الإسلام ارتفع بآدم وذريته إلى أعلى مكانة وخصه بأعظم أمانة وهى أمانة الخلافة فى الأرض والمسئولية والتكليف وكرمه وفضله على مخلوقاته بما منحه من نعم وطيبات، ومن أعظم هذه النعم نعمة العقل والعلم والتدبر، فانطلق العقل الإنسانى ينظر فى الكون ويتأمل فى مخلوقات الله وفى الإنسان نفسه ليعرف مكانه فى هذا العالم، ودوره الذى كلف به، والأمانة التى ائتمن عليها، والخلافة التى استخلف لها، والأسباب التى من أجلها فضله الله واختاره دون سائر خلقه لحكمة يعلمها الله وحده مما جعل الملائكة تتعجب لهذا الاختيار حينما ألقى الله عليهم النبأ العظيم ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة].

فكان هذا القول درسا إلهيا للملائكة التى تعجبت من الاختيار والامتيار الذى خص بهما آدم عن غيره على الرغم مما ينتظر منه من فساد وسفك دماء ولكن الملائكة عرفت بعد ذلك أن آدم الذى اختاره الله لخلافته وفضله على كافة مخلوقاته قد خصه الله بعلم لم تعلمه الملائكة قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾ [البقرة] عندئذ عرفت الملائكة أن العلم بأوسع معانيه الموهوبة وأعمق صوره المكتسبة هو خصيصة الخلافة الإنسانية فى نوعها الكلى وهو وراثة فطرية فى النفس الإنسانية التى يرجع إليها

الناس جميعا مهما اختلفت أشكالهم، وألوانهم، وألسنتهم، ومواطنهم، وأزمانهم، وأفكارهم، وعاداتهم، وعقائدهم.

وقد عرض القرآن الكريم لقضية الخلافة بالتفصيل ونشأة الإنسانية فى وحدة منبعها فى قصة خلق آدم عليه السلام، مما جعل كثيرا من الدارسين والباحثين يهتمون بدراسة هذه الخلافة، ويعنون بها أشد العناية، وكان لكل منهم منهجه الذى سلكه، وأسلوبه الذى اتبعه.. فالثعالبى كان له فى بيان قصة آدم عليه السلام، وكذلك اهتم الآلوسى بتفسير قول الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة] فقال: «إن معنى كون آدم خليفة الله فى أرضه أن الله استخلف آدم والأنبياء صلوات الله عليهم فى عمارة الأرض وسياسة الخلق وتكميل وإصلاح نفوسهم، وتنفيذ أوامر الله وأحكامه فيهم، وبهذا تكون خلافة الإنسان هى تحقيق رسالة الأنبياء والمرسلين وهى لا تنقطع آثارها من الأرض ما دام الإنسان على ظهرها؛ لأن الإنسان هو المحقق لهذه الرسالة المكلف بها بمقتضى طبيعته وعلمه وقدرته».

وكذلك كان الإمام محمد عبده من المهتمين بهذه الدراسة والمتشغلين ببيان قصة الخلافة، فقد ذكر وهو بصدد الحديث عن سبب اختيار الإنسان ليكون خليفة الله فى الأرض أن ذلك إنما يرجع إلى ما تهيأ فى فطرة الخليفة الإنسانى من استعداده لعلم لم تعلمه الملائكة إذ قال الله تعالى وعلم آدم الأسماء كلها».

فهذا العلم المتميز هو الذى جعل آدم يتبوأ هذه المكانة على الرغم من كل ما كان يتوقع منه من فساد وسفك دماء.

وتذكر الدكتورة عائشة عبد الرحمن وهى تتابع قصة القرآن فى خلق الإنسان بسببين لتفضيل الإنسان على الملائكة **أولهما**: هو تكريم الإنسان الأول وهو آدم عندما أمر الله ملائكته بالسجود له لأنه يتميز عنهم بعلم لم يعلموه إذ لا مجال لديهم لميزة الكسب إذ قالوا: «سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا»(١).

والسبب الثانى: أن الخلافة فى الأرض اقتضاها ما يحتمل النوع الآدمى كله من أمانة إنسانيته ومسئولية عمله وكسبه ولتبعة الابتلاء والاختبار التى أعفى منها الملائكة بالتسخير المطلق».

---

(١) الدكتورة عائشة عبد الرحمن: مقال فى الإنسان ص ٤١.

وفى تفسير المنار يناقش الشيخ/ رشيد رضا قضية الخلافة فيقول: فالظاهر أن المراد بالخليفة آدم ومجموع ذريته.

ثم يستطرد متسائلا: ولكن ما معنى هذه الخلافة؟ وما المراد من هذا الاستخلاف؟هل هو استخلاف بعض الإنسان على بعض؟ أم استخلاف النوع على غيره؟

ويحاول أن يجد الإجابة على هذه الأسئلة فيقول: «لقد جرت سنة الله فى خلقه بأن تعلم أحكامه للناس وتنفذ فيهم على يد أناس منهم يصطفيهم ليكونوا خلفاء عن الله فى تحقيق أوامره وأحكامه، وهؤلاء قد امتازوا بما تميز به الإنسان على سائر المخلوقات، فيكون بذلك معنى الخلافة عاما للإنسان لأنه أعطى قوى معنوية وقدرات عقلية ومشاعر وإحساسات إنسانية يكون له بها السلطان على سائر الكائنات غيره».

والإنسان بهذا الامتياز والتميز إنما أصبح مسئولا عن معرفة نفسه وطبيعة اختياره وكسبه. وقد أكد تعالى هذا المعنى فى قوله: ﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾﴾ [القيامة].

وكذلك أصبح مسئولا أيضا عن معرفة الكون والعالم من حوله وإدراك العلاقات بينهما وبينه قال تعالى فى هذا المعنى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿٨﴾﴾ [الروم] فكلام الله هنا إنما هو تنبيه منه تعالى للإنسان على أن الناس لو تدبروا أنفسهم وعرفوها عرفوا بمعرفتها حقائق الموجودات فانيها وواقيها، وعرفوا حقيقة السموات والأرض وقدرة الخالق وعظيم علمه وحكمة خلقه للإنسانية وفضله عليها.

ولهذا كان من الواجب على الإنسان أن يتفكر ويتدبر فى ذاته والعالم من حوله، ويحاول أن يتعرف على نفسه؛ لأن من عرف نفسه عرف كيف يسوسها ومن أحسن أن يسوس نفسه أحسن أن يسوس العالم فيصير من خلفاء الله المذكورين فى قوله: «ويستخلفكم فى الأرض».

وهذه الخلافة تتطلب من الإنسان أن يجعل من ذاته قوة إنشائية تعمر الأرض، وتطهر النفس وتصلح الأمر بما وهبه الله من علم ومعرفة وبصر وبصيرة

وإدراك وتميز ،وأن يظل هكذا باحثا دارسا حتى يتحقق من أمره رشدا يتفق مع رسالته ويحقق معنى خلافته ومكانته التى تحدث الله عنها فى أكثر من مكان إذ قال الله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾ [الانشقاق].

فالإنسان فى هذا البيان قوة مبدعة وروح متصاعدة وعنصر ثابت فى تركيب الوجود؛ ولذلك كان لابد له من دور يؤديه وواجب يقوم به فى الكشف عن أسرار الوجود والبحث فى أغواره وتطوير إمكانياته والاستفادة من أبعاده.

فيحقق بذلك معنى الخلافة، يوضح ماهية الأمانة ويكون فى المكانة التى خلق لها وأعد من أجلها، وقد ذكر الشيخ محمد حسنين مخلوف فى تعليقه على الجزء الرابع من موافقات الشاطبى «سؤال الملائكة إنما وقع لاستكشاف الحكمة وإزالة الشبهة التى أثارها فى نفوسهم ما فهموه من اسم الخليفة وما يقتضيه اختلاف طبائعه وتركيب أمزجته، قال تعالى: (إنى أعلم ما لا تعلمون).

فالله تعالى قد أرشد بهذا القول الملائكة إلى قصور علمهم وأظهر لهم علم آدم فارداوا بذلك علما ويقينا بصلاحية آدم للخلافة دونهم، ولأن خليفة الله فى عمارة الأرض وسياسة الخلق وتكميل النفوس وإصلاحها يجب أن يكون جامعا بين التجرد والتعلق، حافظا للنسبتين، وذلك بألا يكون الخليفة ملكا وإنما يكون بشرا، وآدم عليه السلام هو المختار من الله لذلك والجامع بين صفتى جماله وجلاله، وفى هذا المعنى قال الرسول ﷺ: «خلق آدم على صورته» وبه جمعت الأضداد وكملت النشأة وظهر الحق.

فخلق آدم إنما تم بالطريقة التى تلائم الوظيفة التى سيقوم بها وهى خلافة الأرض؛ ولذلك جعل الله له من الخصائص والسمات والامتيار ما يتناسب مع هذه الخلافة وما يتلاءم مع حمل الأمانة وهى العلم.

قال الإمام الرازى فى تفسيره الكبير إن قول الله تعالى: «وعلم آدم الأسماء كلها» أى علمه صفات الأشياء ونعوتها وخواصها، أى معرفة حقيقة الأشياء ومنحه العقل ليتمكن من تحصيل هذه المعارف[1].

(١) الرازى التفسير ج١.

وتحدث الشيخ رشيد رضا فى تفسير المنار عن نوعية علم آدم فذكر قول الإمام محمد عبده بأن علم آدم كل شيء لا فرق فى ذلك بين أن يكون هذا العلم له فى آن واحد أو فى آنات متعددة، والله قادر على كل شيء.

وأن هذه القوة العلمية عامة للنوع الآدمى كله وهى تعنى قدرته على معرفة الأشياء بالبحث والاستدلال[1].

وذهب الإمام القرطبى إلى القول بأن خلافة الإنسان إنما تعنى أن الله ركب فيه من القوى الخفية والخصائص المعنوية والإدراكات العقلية ما يجعل الخير فيه أغلب من الشر، وتعنى كذلك أن يكون فيه من الكمل المصطفين أفراد يظاهرون قوى الخير، ويسوسون الخلق بحكمة الله وتدبيره وتطبيق شرائعه، فتعلموا كلمة الحق والخير على صوت الباطل والشر، ويسبحون بحمده تسبيحا قائما على ما منحهم من الإرادة والاختيار ومجاهدة النفس والتغلب على الهوى، ويقدسون الله تقديسا ناشئا من اطلاعهم على براهين عظمته وقاهر قدرته من بدائع الكون بما آتاهم من العلم الذى لم يؤته لجنس غيرهم.

وكذلك يرى الإمام القرطبى أن المراد من آدم هو الجنس الإنسانى الذى أظهر فى فرده الكامل بحقيقة الإنسانية ليكون نموذجا لما يأتى بعده من سلالة الإنسانية، وأن المراد من الأسماء التى علمه الله إياها حقائق الأشياء ومعانى الأسماء بمعرفة مسمياتها معرفة كاملة شاملة، وإطلاق أسمائها عليها عند وجودها بمناسباتها لأن الاسم المميز للمسمى لا يطلق على الحقيقة ليميزها إلا بعد معرفة المسمى بخصائصه المميزة.

وإن معنى التعلم هو أن الله أودع فى فطرة الإنسان واستعداده الخلقى معانيها بما أودع فيه من القوى الفكرية والإدراكات العقلية والاستشفاف الروحى التى جعلها الله وسيلته إلى علم جميع حقائق الأشياء التى تدخل تحت الطاقة البشرية وتظهر فى وقتها بالكسب والتعلم التدريجى فى أفراد الإنسان على مر الدهور والأزمان.

---

(١) رشيد رضا- تفسير المنار ج١.

من ذلك كله يظهر بجلاء أن سبب اختيار آدم للخلافة إنما يرجع فى نظرنا ونظر كثير من المفكرين والباحثين إلى خاصية العلم الفطرى والاستعداد الطبيعى لاكتساب علوم ومعارف تساعده على التقدم والترقى والوصول بنفسه إلى الصورة المطلوبة من كمال الخلق وجميل السلوك وحسن السيرة المؤدية إلى سعادته فى الدنيا والآخرة.

وكذلك استحق الإنسان أن يكون خليفة الله فى الأرض لأنه أوتى من العلم والمعرفة بحقائق الكون ومن الاستعداد لتلقى أحكام الله وشرائعه فى سياسة الخلق ما لم يؤته مخلوق غيره حتى ولا الملائكة المكرمون فكان له بذلك عليهم فضيلة شرف الخلافة مع أنهم المسبحون المقدسون لله تعالى.

ومع أن النوع الانسانى المختار للخلافة لابد وأن يقع من بعض أفراده انحراف عن سنة الله وصراطه المستقيم، لكن منزلة المعرفة التى لا حد لها هى الخاصية التى امتاز بها الإنسان والتى رفعه الله بها فوق كل منزلة لكل مخلوق وهى التى استحق بها مقام الاستخلاف.

وقد أظهر الله للملائكة ما أودعه فى نفس آدم من العلم بالحقائق الكونية والسنن الإلهية والعلوم والمعارف التى تتناسب مع من اصطفاه لخلافته، إبرازا لفضله وشرفه.

فلما علم الله الملائكة ما لم يكونوا يعلمونه، وأطلعهم على ما كان محجوبا عنهم من امتياز وشرف الجنس الإنسانى المنتخب للخلافة قاموا يسبحون الله تعالى ويردون إليه العلم المحيط.

ومن هنا كان الجواب لسؤال الملائكة عن صفة الخلافة وهل هى خير محض كالذى طبعوا عليه من تسبيح لله وتقديس له؟ أو للشر فيها مكان تقتضيه حكمة الله وعدله؛ لأنها تقوم على سياسة الخلق بإقامة العدل الإلهى فيهم، وتنفيذ شرائع الله وسننه فيما بينهم وتوجيههم إلى إثارة ما فى ظواهر الكون من قوى الطبيعة وحقائق الموجودات تحقيقا لنعمة التسخير الإلهى التى امتن بها الله على الإنسان وحده فى قوله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا (٢٩)﴾ [البقرة].

وكذلك لم يترك الله الإنسان فى هذا العالم دون أن يعلمه ويطهره ويزكيه ويوجهه ويقويه بالعلم والبيان والمعرفة والوجدان قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة] وقال تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ [الرحمن]. وقال عز وجل ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد] وقال عزل من قائل ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان].

حقا لقد حظى الإنسان باهتمام كبير وعناية عظمى من الله تعالى سيد الخلق فلم يترك الإنسان هملا إنما خصه بالعلم والعقل وأرشده وهداه وبصره، عله يتذكر ويتدبر ويهتدى ويتبصر، فجاء ذكر الإنسان فى القرآن فى خمسة وستين موضعا تزيد من صورته وضوحا ولفلسفته عمقا، وخصائصه تميزا من حيث كونه فردا من النوع البشرى أو هو الإنسان الكلى.

وقد أدرك ابن حزم بذكائه هذا المعنى فقال فى هذا الصدد: إن لفظ الإنسان تدل على النوع كله كما فى قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ [العصر] أى جماعة ولد آدم عليه السلام.

وتقع أيضا هذه اللفظة على واحد فيقول: «أتأتى الإنسان الذى تعرف وأنت تريد غلامه أو زوجته، أو واحدا من الناس يعينه»[1] فلفظة الإنسان كما أوضح ابن حزم إنما تقع على النوع الكلى وعلى الإنسان الفرد. وهذا ما توضحه اللغة ويثبته النص، ويزيد ابن حزم هذا المعنى وضوحا فى موضع آخر حين يقول: الإنسان الكلى أى الواقع على كل الأشخاص وهو الذى أراده الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾﴾ [المعارج]. فالله تعالى لم يرد فى قوله هذا، إنسانا بعينه، لكنه عز وجل عنى النوع كله، أى الإنسان الكلى وقد يقال أيضا الإنسان المطلق أو هو حامل لصفاته من النطق والحياة واللون والطول والعرض، وغير ذلك، ناعت لزيد وخالد، وهند وزينب، ولكل شخص من الناس وهو المسمى الإنسان الجزئى؛ فزيد يسمى إنسانا، وعمرو يسمى إنسانا وكل واحد من الناس كذلك.

---

(١) ابن حزم: التقريب لحد المنطق ص ٤٢.

فالإنسان الكلى ناعت لكل ما ذكرنا، أى مسمى: كل واحد من الناس، وهذا القسم لا يكون محمولا أصلا أى لا يكون عرضا ألبتة لأن العرض محمول لا حامل والجوهر حامل لا محمول»(١).

فالإنسان لفظا ومعنى هو الإنسان الكلى، الذى يشمل كل أبناء آدم ويشمل كل إنسان على حدة فى النوع الإنسى، وقد عنى ابن حزم بدراسة الإنسان واهتم بمعرفته شأن غيره من الباحثين قدماء ومحدثين ممن سبقوه وممن لحقوه، وقد أوضح ذلك وهو بصدد دراسته للإنسان إذ قال: «اختلف الناس فى هذا الاسم على من يقع».

وقد ذهبت طائفة إلى أنه يقع على النفس دون الجسد، وذهبت طائفة ثانية إلى أنه يقع على الجسد دون النفس، وذهبت جماعة ثالثة إلى أنه يقع على النفس والجسد معا: والواقع أن الاختلاف على حقيقة الإنسان وهل هو النفس أم الجسد أم هما معا اختلاف عميق وقديم بين الفلاسفة والمفكرين يونان ومسلمين ومحدثين، وقد تعددت فيه المذاهب وتنوعت فيه الآراء، وذلك لأن الله تعالى هو الذى خلق الإنسان وهو وحده الذى يعلم سر خلقه، وكذلك لا أحد يعلم سر الانسجام فى تكوينه على الرغم من شدة التعقيد والتركيب فيه، وقد تحدث كتاب الله عن الإنسان بالشرح والبيان فعرف ماهيته وأوضح طبيعته إذ قال تعالى فى محكم آياته: ﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٦ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾ [السجدة].

فهذه الآية الكريمة جامعة لمعنى الإنسان وحقيقة تركيبه ثم تتابع الآيات بعد ذلك فى بيانه وتفصيله فيقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢﴾ [المؤمنون] فيبين الجانب المادى فى الإنسان وهو الجسد أى البدن أما قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي .. ۝٢٩﴾ [الحجر] فتوضح الجانب الروحى فيه.

---

(١) ابن حزم: الفصل ج٥، ص٦٦، ورسالة الأصول والفروع لوحه ٩٥.

وقال سبحانه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾﴾ [الشمس] فتحدث عن الجانب النفسى فى الإنسان أى النفس البشرية.

أى أن هذه الآيات جميعها توضح ماهية الإنسان وطبيعة تركيبه من مادة وهى التى تكون الجسد ومن روح ونفس وهى حقيقة الإنسان وبهذا يكون الإنسان هو الجسد. الذى يمثل الجانب المادى الطبيعى والنفس والروح اللذين يمثلان الجانب الغيبى الميتافيزيقى.

ثم تتوالى آيات الله البينات موضحة مبينة الجانب المادى فتتحدث عن طبيعة هذه المادة ونوعيتها فيقول عز وجل: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الرحمن]، وقال تعالى: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الحجر] وقال عز وجل فى موضع آخر: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴿٣٧﴾﴾ [الكهف] وقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾﴾ [الطارق].

من هذا كله نستطيع أن نقول إن الله خلق الإنسان من مادة وهى الطين والصلصال أى التراب والماء وهذه المادة هى التى تكون جسده أى بدنه.

والواقع أن هذا القول يتفق ووجهة نظر الفلاسفة والعلماء الذين أكدت أبحاثهم أن جسد الإنسان مكون من جميع العناصر الأرضية أى الماء والتراب الذى يتكون بدوره من الأكسجين، والأيدروجين والكربون والحديد والبوتاسيوم والكالسيوم وغير ذلك من عناصر تنتقل من تربة الأرض إلى يد الإنسان عن طريق ما يتناوله من أطعمة نباتية وحيوانية تكونت هى أصلا من الأرض.

والحقيقة أن الإنسان ليس بدنا فحسب كما سبق أن رأينا بل هو روح ونفس كذلك، وهذا واضح وظاهر فى قوله تعالى وفى أقوال الحكماء من الفلاسفة والمفكرين.

أى أن الحديث عن الإنسان إنما يعنى الحديث عن الجسد والروح والنفس أو كما ذكر جلال الدوانى فى كتابه حقيقة الإنسان[1]: «إن الإنسان مؤلف من ثلاثة أشياء جسد كثيف، وجسد لطيف، وروح؛ فالجسد الكثيف هو الجسم الراقد فى الفراش حال النوم وهو الذى يفنى بعد الموت، والجسم اللطيف هو الذى ينفصل عن الجسم الكثيف أثناء النوم فيجوب ملكوت السموات والأرض، وهذا الجسم اللطيف هو المسمى بالروح فى الاصطلاح الشرعى. أما العنصر الثالث فهو الروح الرابط بين الجسم الكثيف والجسم اللطيف وليس له كيفية وهو المقصود من قوله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي (٨٥)﴾ [الإسراء].

والحقيقة أن القرآن الكريم قد فرق بين الروح والنفس والبدن وجاء ذكر كل منها فى معنى خاص.

جاء لفظ الروح فى إحدى وعشرين مرة منها ما يقصد به الوحى إذ قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤)﴾ [الشعراء].

ومنها ما يعبر عن الروح الإنسانية التى هى سر إلهى، وبه تصير المادة الآدمية كائنا حيا كما فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (٩)﴾ [السجدة].

والروح كذلك هى السر الإلهى الذى تجلى فى مريم فحملت جنينها الحى، وعلى هذا فإن الروح هذه هى من أمر الله لا يدرى كنهها غيره سبحانه وتعالى، والدليل على ذلك قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥)﴾ [الإسراء].

أما النفس فتأتى فى القرآن الكريم مفردة فى مائة وست وعشرين آية وجمعا بصيغة نفوس مرتين وبصيغة أنفس مائة وثلاثا وخمسين مرة[2].

(١) جلال الدين الدوانى: حقيقة الإنسان والروح الجوال فى العوالم، تحقيق محمد زاهد الكوثرى، القاهرة ١٩٤٧، ص١١.

(٢) مقال فى الإنسان ص١٤٥.

ومعنى النفس فى جميع هذه الآيات إنما نعنى الذات الإنسانية بعنصريها المادى والروحى أى العينى والغيبى أى الفيزيقى والميتافيزيقى، ومن ثم يجوز عليها الموت والقتل، ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ (١٤٥)﴾ [آل عمران] ويقول تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (١٨٥)﴾ [آل عمران].

وكذلك يقول عز وجل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ (١٥١)﴾ [الأنعام] وبهذا الإطلاق لا تكون النفس مرادفة للروح التى هى سر الحياة، وكذلك ليست هى الجسد بل هى أقرب ما تكون تعبيرا عن ذات الإنسان حينما تدخل الروح الجسد فيصبح حينئذ نفسا إنسانية.

ودليلنا على صحة ذلك هو قولنا قتلت النفس وزهقت الروح أى خرجت من البدن عند الموت لأن الروح لا تموت، وكذلك يأتى لفظ الجسد فى القرآن أربع مرات بمعنى الصور والشخوص؛ فالإنسان على ذلك يجمع بين مصطلحات ثلاثة هى البدن والنفس والروح.

ولهذا السبب نجد المفكرين والفلاسفة قد اختلفوا فيما بينهم على من يقع لفظ الإنسان؟[1].

ولقد أوضح الأشعرى هذا الاختلاف الكبير فى كتابه مقالات الإسلاميين فأورد تسعة عشر رأيا فى ماهية الإنسان لدى المفكرين فقال: «واختلف الناس فى الإنسان ما هو؟ فقال أبو الهزيل العلاف: هو الشخص الظاهر المرئى الذى له يدان ورجلان».

وحكى أن قوما قالوا: إن البدن هو الإنسان وأعراضه ليست منه، وليس يجوز إلا أن يكون منه عرض من الأعراض. «وقال بشر بن المعتمر: الإنسان جسد وروح وإنهما جميعا إنسان، وإن الفعال هو الإنسان الذى هو جسد وروح، وكان أبو الهزيل لا يقول إن كل بعض من أبعاض الجسد فاعل على الانفراد، ولا أنه فاعل مع غيره» ولكنه يقول: الفاعل هو هذه الأبعاض.

---

(١) انظر الأشعرى: مقالات الإسلاميين ج٢، ص٢٦- ٢٨.

وقال ضرار بن عمرو: الإنسان من أشياء كثيرة. لون وطعم ورائحة وقوة، وما أشبه ذلك، وأنها الإنسان إذا اجتمعت، وليس ها هنا جوهر غيرها، وأنكر (حسين النجار) أن تكون القوة بعض الإنسان، وأنكر ذلك أكثر أهل النظر.

وقال عياد بن سليمان: «الإنسان معناه أنه بشر، فمعنى إنسان معنى بشر، ومعنى بشر معنى إنسان فى حقيقة القياس، وزعم أن الإنسان جواهر وأعراض. وحكى ذرفان أن هشام بن الحكم قال: «الإنسان اسم لمعنيين لبدن وروح، فالبدن موات. والروح هى الفاعلة الحساسة الداركة دون الجسد وهو نور من الأنوار، فقال أبو بكر الأصم: الإنسان وهو الذى يرى، وهو شيء واحد لا روح له، وهو جوهر واحد، ونفى إلا ما كان محسوسا مدركا.

وقال النظّام: «الإنسان هو الروح، ولكنها مداخلة للبدن مشابكة له وأنه كل هذا، وإن البدن آفة عليه وحبس وضاغط له».

ثم يورد الأشعرى رأيا آخر فيقول: وحكى درفان عنه أن الروح هى الحساسة الداركة وأنها جزء واحد وأنها ليست بنور ولا ظلمة.

وقال آخرون ومعهم معمر: الإنسان جزء لا يتجزأ وهو المدير فى العالم والبدن الظاهر آلة له، وليس هو فى مكان، فى الحقيقة ولا يماس شيئا ولا يماسه، ولا يجوز عليه الحركة والسكون والألوان والطعم، ولكن يجوز عليه العلم والقدرة والحياة والإرادة والكراهة وأنه يحرك هذا البدن بإرادته ولا يماسه.

وقال قائلون: «الإنسان جزء لا يتجزأ، وقد يجوز عليه المماسة والمباينة والحركة والسكون وهو جزء فى بعض هذا البدن حال، ومسكنه القلب وأجازوا عليه جميع الأعراض وهذا قول الصالحى.

وكان ابن الراوندى يقول: هو فى القلب، وهو غير الروح، والروح ساكنة فى هذا البدن، وقال آخرون: الإنسان هو الروح والحواس الخمس أجزاء منه، والإنسان جنس واحد غير مختلف إلا أن إدراكه اختلف، فكان يدرك بكل جهة أخرى فاختلف الإدراك لاختلاف الأخلاط والامتزاج وهم الديصانية.

وحكى عن المرقونية أنهم يزعمون أن البدن فيه حواس خمس وروح وأن الروح هى الإنسان، وأن الحواس ليست منه إلا أنها إرادات تؤدى إليه وهو غير البدن، ويجعلونه جنسا ثالثا ليس بنور ولا ظلمة.

وقال أصحاب الطبائع: الإنسان هو الحر والبرد واليبس والبله اختلط بهذا الضرب من الاختلاط، وكذلك سمعه وسائر حواسه، وكذلك جثته ولحمه ودمه، وجميع هذه الأمور هى الإنسان، وقال أصحاب الهيولى أقاويل مختلفة، فزعم بعضهم أن الإنسان هو الجوهر الحى الناطق الميت وأنه إنسان فى حال نطقه وحياته وجوزوا الموت عليه، وقد كان قبل ذلك لا إنسانا، وقال بعضهم الإنسان هو الحى الناطق وهو الجوهر وأعراضه.

وقال آخرون بل فى جوهر شىء ليس بمماس، ولا مباين ولا واحد منها مختلط بصاحبه، وهو فى الجوهر على أنه مدير له[1].

ويذهب الدكتور أحمد صبحى إلى أن تعريف الإنسان فى أى مذهب له أهمية خاصة لأنه حجر الزاوية فى المذهب كله وهو كذلك يحدد الاتجاهات العامة فيه- ولقد وضع أرسطو تعريفا للإنسان بأنه حيوان ناطق؛ ذلك لأن فلسفة أرسطو تدور كلها حول الماهية، وعرف ماركس فى العصر الحديث الإنسان بأنه حيوان صانع الآلة أى وفقا لوظيفته؛ لأن الجانب الاقتصادى هو حجر الزاوية فى مذهبه.

وعرفه المسلمون بأنه كائن مكلف مسئول عن أعماله[2] وأخلاقه لأن الإسلام بالأعمال وبالأخلاق حيث هما المحور الرئيسى للفكر الإسلامى ولأن الإنسان حمل الأمانة فهو مكلف بالتكاليف العقلية والخلقية والشرعية، وأن الله إذ كلفه وهبه الخير والشر «وهديناه النجدين». فصار بذلك مسئولا عن أفعاله وهذه المسئولية بمقدار حريته فصار التكليف متصلا بالعمل والسلوك، ومن هنا كانت العلاقة الوثيقة بين دراسة الإنسان والأخلاق وهو ما أخذناه فى اعتبارنا عند بحثنا فى الفلسفة الإنسانية ولأن المسلمين مع اختلافهم حول تعريف الإنسان إلا أنهم لم يختلفوا حول الصفة الأساسية فى أنه مكلف وليس بين تعريفاتهم ما يتعارض مع صفة التكليف.

وكذلك أوضح ابن حزم آراء المسلمين فى ماهية الإنسان وعرض لها فقال «ذهبت طائفة إلى أن الإنسان إنما يقع على الجسد دون النفس وهو قول أبى الهزيل

---

(١) الأشعرى: مقالات الإسلاميين ج٢، ص٢٦، ب٢٨.

(٢) الدكتور أحمد صبحى: فى علم الكلام، ج١، ص٢١١، طبعة ١٩٧٨.

العلاف: وذهبت طائفة إلى أنه إنما يقع على النفس دون الجسد وهو قول إبراهيم النظَّام وذهبت طائفة إلى أنه إنما يقع عليهما معا كالبلق الذى لا يقع إلا على السواد والبياض معا»[1].

والرأى الأول للعلاف ومن ذهب مذهبه فى أن الإنسان هو الجسد أى المادة فقط محتجا فى ذلك بالآيات التى تصرح بخلق الإنسان من مادة كالتراب والصلصال والماء.

ولذلك نجده يعرف الإنسان بأنه الشخص الظاهر المرئى الذى له يدان ورجلان، ولا ينسب فعل إلى عضو من أعضاء الإنسان إنما الفاعل هو الإنسان ككل.

وهذا التعريف من جانب العلاف إنما يشير إلى طبيعة الإنسان الفاعلة المكلفة المسئولة والذى يجازى على فعله الثواب والعقاب بالنعيم والآلام، ولذلك فإن ما لا ينعم أو يتألم من أعضاء الإنسان لا يستحق عنده أن يكون ضمن ما يطلقون عليه اسم الإنسان. يقول الأشعرى: وحكى أن أبا الهزيل كان يجعل شعر الإنسان وظفره من الجملة التى وقع عليها اسم الإنسان، وإذا كان الإنسان غير مسئول عما يقع منه حال النوم فإن الإنسان لدى العلاَّف فى حال نومه مسلوب النفس والروح دون الحياة.

والرأى الثانى: هو رأى النظام ومن اتفق معه، فى أن الإنسان هو النفس لا الجسد مستندا فى ذلك إلى آيات الله البينات التى تتحدث عن النفس بمعنى الإنسان وأن البدن آلة وقالب لها كما أنه حابس ضاغط عليها والروح عنده جسم لطيف متداخل فى البدن الكثيف متغلغل فى أجزائه سارية فى أعضائه سريان ماء الورد باقية فيه من أول العمر إلى آخره.

فعلاقة الروح بالبدن عنده هى علاقة متداخلة أى أنها تشابك البدن بحيث يكون كل هذا فهى كامنة فيه متحركة حركة اعتماد تفعل فى الجسم، بل إن فعل الإحساس والإدراك لها وما الحواس إلا خروق أو نوافذ تدرج الروح منها الأشياء، وليس الإدراك فعل الروح بذاتها بل هو فعل الله بإيجاب خلقه للحواس[2].

---

(١) ابن حزم: الفصل ج٥، ص٦٥.

(٢) الدكتور عبد الهادى أبو ريدة: النظام ص٩٩- ١١٢.

ويؤكد ابن حزم صحة رأى كلا الفريقين لاستنادهما على قول الله تعالى واحتجاجهما بآياته البينات،وقد ذكر فى هذا المعنى مانعه «وكلا هذين الاحتجاجين حق ليس أحدهما أولى بالقول من الآخر ولا يجوز أن يعارض أحدهما بالآخر لأن كليهما من عند الله عز وجل، وما كان من عند الله فليس بمختلف»[1] قال تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا (٨٢) ﴾ [النساء] ولما كانت هذه الآيات حقا فقد ثبت أن للإنسان اسما يقع على النفس دون الجسد كما أظهرت الآيات، وإنما أيضا يقع على الجسد دون النفس كما هو واضح من نصوص القرآن، واسما كذلك يقع على كليهما مجتمعين يقول ابن حزم فى هذا الصدد: «أن للإنسان اسما يقع على النفس دون الجسد، ويقع على الجسد دون النفس ويقع عليهما مجتمعين».

وابن حزم فى هذا القول يحاول أن يأخذ بكل النصوص القرآنية مجتمعة ويحاول أن يوفق بينها بلا تعسف ظاهر أو تأويل يخرجها عن المعنى، إنما يبرهن على صحة ذلك باللغة واستعمالاتها، فيقول: «إننا نقول فى الحى هذا إنسان وهو مشتمل على جسد ونفس وتقول للميت هذا إنسان وهو جسد لا نفس وتقول إن الإنسان يعذب قبل يوم القيامة وينعم أى النفس دون الجسد»[2].

ويرفض ابن حزم رأى من قال: إن الإنسان هو النفس والجسد معا فقط، لأن ذلك القول خطأ يبطله الذى ذكرنا من النصوص. وأيضا هو رأى محدود ضيق لمفهوم الإنسان يخالف ما ذكره الله سبحانه وتعالى فى كلامه من وقوع الإنسان على الجسد دون النفس ووقوعه على النفس دون الجسد وعلى الاثنين معا.

أى أن مفهوم الإنسان لدى ابن حزم أكثر اتساعا وشمولية عن كثيرين غيره من المفكرين والفلاسفة، وما كان ذلك إلا لأن ابن حزم بنى تصوره هذا على النص الدينى والواقع اللغوى واستعمالاته الصحيحة بالإضافة إلى النظر العقلى المنطقى.

---

(١) ابن حزم: الفصل ج٥، ص٦٥.

(٢) ابن حزم: الفصل ج٥، ص٦٦.

وهذا المفهوم المتكامل للإنسان عند ابن حزم سبق به كثيرون من الفلاسفة وعلماء النفس مثل لاشبليه الذى ذهب فى تصوره وتحليله للإنسان إلى القول بالأبعاد الثلاثة.

١- **البعد الخارجي** le dehors أى البعد الظاهر للإنسان ويتمثل فى الجسد أو البدن وهو يقابل الجانب المادى العينى الطبيعى لدى ابن حزم وما اعتبره الجبائى يمثل حقيقة الإنسان فالإنسان عنده هو ما تكون من الصورة والبنية، والصورة تعنى الصورة الظاهرة للإنسان كما تدل البنية على تركيب جسم الإنسان، وحينما اعترض عليه بأنه يمكن أن يكون من التماثل كهيئة الإنسان وصورته فدخل ابنه أبو هاشم فاشترط (اللحمية) فلما قيل له أن ذلك ما لا يميز الإنسان عن الحيوان، لم يشأ أن يرجع إلى رأى أرسطو فى تعريف الإنسان وتميزه بالنطق، إذا فهم من ذلك مجرد الكلام مما يخرج الأبكم ولا يهمنا إخفاق الجبائى أو ابنه فى تحديد مفهوم الإنسان وقصره على جانب واحد من جوانبه أو أبعاده إنما الذى يهمنا هو بيان اختلاف نظريات الفلاسفة فى بيان حقيقة الإنسان.

٢- **البعد الداخلى** le dedons أى البعد الباطنى وهو يتمثل فى الروح وهو الجانب الغيبى الميتافيزيقى للإنسان.

٣- **والفوق** le dessus أى فوق الجسد منفردا وفوق الروح منفردة إنما هو البدن والروح معا فى وحدة وتكامل وانسجام أى النفس الإنسانية.

وهكذا نرى كيف سبق ابن حزم لاشبليه[1] فى تصوره لمفهوم الإنسان ونظرته المتكاملة له فالإنسان هو الجسد وهو أيضا الروح وهو كذلك النفس وهذا ما انتهى إليه الغزالى كما سيأتى بعد.

ولكن لما كان الجسد مواتا لا حياة فيه وجمادا لا حركة له إلا أن تحركه النفس فيهمنا الآن أن نعرف النفس وندرسها إذا ما أردنا أن نعرف الإنسان ونفهمه، خاصة وأن النفس هى ذات الإنسان عندما تدخل الروح البدن أى الجسد الميت فتبعث فيه الحياة ويصبح الجسد نفسا حية أى نفسا إنسانية.

(١) انظر مشكلة الإنسان للدكتور زكريا إبراهيم.